

التربية الأخلاقية وبناء ثقافة الطفل العربي في عالم متغير

Moral education and building the arab child's culture in a changing world

Education morale et construction de la culture d'un enfant arabe dans un monde en mutation

1. د- حيتامة العيد أستاذ محاضر - أ- جامعة جيجل 0560320186haitamalaidd77@gmail.com (haitama laid)

2. أ- سلمى محييدات ط* د علم اجتماع التربية بجامعة جيجل الهاتف: 0777878847 (selma mehimdat)

البريد الإلكتروني: selma.mehimdat@yahoo.com

تاريخ النشر: 2019/06/30

تاريخ الاستلام: 2018/10/10

الملخص:

تشكل مرحلة الطفولة بأبعادها الإنسانية الوحدة الإستراتيجية الأعمق في الوجود الإنساني والثقافة المجتمعية، فأى محاولة للنهوض بالمجتمع والإنسان لابد أن تنطلق من الطفولة، ولذلك أصبح الاستثمار في تربية الأطفال من أولويات كل أمة تريد لنفسها الرقي والتطور.

حيث تمثل تربية هذه الشريحة - شريحة الأطفال - وتنميتها، وكذا بناء ثقافتها الخاصة منطلق كل نهضة حضارية، وإذا كانت النهضة التربوية هي الشرط الأساسي لعملية الإصلاح التربوي، فإن التربية الأخلاقية هي أهم أعمدها الركيزة، كون القيم الأخلاقية التي تغرس وتؤصل في الطفل تؤدي دورا في إنتاج السلوك الأخلاقي، الذي يتصف بالأصالة والطابع الإنساني، لذلك كان من الصعب أن نفصل بين الأخلاق والتربية، فالتربية فعل أخلاقي في جوهره، كما أن للأخلاق فعالية تربوية بطبيعتها.

ولما كانت مجتمعاتنا تواجه تحديات جمة في عصر يتسم بالسرعة وشدة التعقد، عصر تهاوى فيه النظم والأفكار وتتآلف فيه الأشياء مع أضدادها، كان لزاما علينا أن نلقي الضوء على أهمية التربية الأخلاقية في بناء وتحصين ثقافة المجتمعات عامة، وفئة الأطفال خاصة، كونها تمثل نقطة انطلاق لإعداد مستقبل أفضل، سنحاول التطرق إلى واقع التربية الأخلاقية وعلاقتها ببناء ثقافة الطفل، ثم محاولة الوصول إلى الدور الثقافي للتربية الأخلاقية في إعداد المجتمع وتحضيره، لمواجهة التحديات في ظل التغيرات الاجتماعية المعاصرة.

كلمات مفتاحية: التربية الأخلاقية، ثقافة الطفل، التغيرات الاجتماعية، الطفولة.

Résumé :

L'enfance dans ses dimensions humaines constitue l'unité stratégique la plus profonde de l'existence humaine et de la culture sociale. Toute tentative de promotion de la société et de l'homme doit partir de l'enfance, donc investir dans l'éducation des enfants devient l'obsession de chaque pays qui souhaite grandir et se développer.

Où l'éducation de ce segment - le segment des enfants - et le développement, ainsi que la construction de leur propre culture à partir de chaque renaissance culturelle, et si la renaissance de l'éducation est la condition préalable au processus de réforme de l'éducation, l'éducation morale est le pilier le plus important. Pilier, les valeurs éthiques qui incarnent et établissent chez l'enfant jouent un rôle primordial. Il est difficile de séparer éthique et éducation. L'éducation est un acte moral par essence. La moralité est également une activité éducative de par sa nature même, car elle représente un point de départ pour la préparation d'un avenir meilleur. Par conséquent, à travers cet humble article scientifique, nous essaierons de créer un comportement éthique caractérisé par l'originalité et la nature humaine. Aborder la réalité de l'éducation morale et son lien avec la construction d'une culture de l'enfant, puis essayer de saisir le rôle culturel de l'éducation morale dans la préparation et la préparation de la société afin de relever les défis à la lumière des changements sociaux contemporains.

Mots clés : Education morale, culture de l'enfant, changements sociaux, enfance.

Summary:

Childhood in its human dimensions constitutes the deepest strategic unit in the human existence and the social culture. Any attempt to promote society and man has to start from childhood, so investing in raising children becomes the obsession of every nation that wants to grow and develop.

Where the education of this segment - the segment of children - and development, as well as building their own culture starting every cultural renaissance, and if the educational renaissance is the prerequisite for the process of educational reform, the moral education is the most important pillars. Pillar, the ethical values that instill and establish in the child play a role in. It is difficult to separate ethics and education. Education is a moral act in essence. Morality is also an educational activity by its very nature, as it represents a starting point for the preparation of a better future. Therefore, through this humble scientific paper, we will try to create ethical behavior, which is characterized by originality and human nature. To address the reality of moral education and its relationship to building a culture of the child, and then try to access the cultural role

of moral education in the preparation and preparation of society, to meet the challenges in light of contemporary social changes.

Keywords: Moral education, child culture, social changes, childhood.

❖ مقدمة :

يشكل التكوين الأخلاقي للمجتمعات الإنسانية مطلباً حضارياً للأمم والشعوب، حيث أكدت الدراسات والأبحاث على مر التاريخ الإنساني أن حياة المجتمعات الإنسانية لا تستقيم من غير القيم الأخلاقية، التي تشكل النسيج الحيوي الوجودي للمجتمع والإنسان في آن واحد، وبذلك يشكل البعد الأخلاقي ركناً أساسياً من أركان العملية التربوية، و البحث في الأخلاق موضوع قديم، تناولته المعتقدات الوضعية والدينية، وكان يُنظر إلى الأخلاق بأنها سلوك منسجم مع المبادئ والأفكار والقواعد التي يقرها المجتمع، اعتماداً على العادات والتقاليد والممارسات المقبولة من الجماعة، فقد ذهب كثير من المفكرين إلى اعتبار الفكر الأخلاقي من أقدم الأفكار الإنسانية، بحيث لا يسبقه إلا الفكر الديني الذي هو قديم قدم الإنسان نفسه، فمن النادر أن ينطلق التفكير الأخلاقي بمعزل عن المعتقدات الدينية، وتزداد الصعوبة في الفصل ما بين الأخلاق والتربية، فالتربية فعل أخلاقي في جوهره كما أن الأخلاق فعالية تربوية بطبيعتها.

وباعتبار الطفولة منطلق البناء التربوي وجذوته، كان لابد من الاهتمام بهذه الشريحة باعتبارها المنطقة الإستراتيجية الأعمق في الوجود الإنساني، وأن أي محاولة للنهوض بالمجتمع والإنسان لابد أن تنطلق من هذه المنطقة الأكثر خطورة في معادلة البناء الحضاري.

تتمثل أهمية التربية الأخلاقية في مساعدة الطفل ليكون عنصراً فعالاً، يعتمد على نشاطاته وخبراته، التي تساعد على التكيف مع بيئته الاجتماعية، فعندما يشعر بمشكلة أخلاقية يضطر لتحديد سلوكه على أساس ما يملك من قيم وكما يقول جون ديوي: "الأخلاق تتعلق بالسلوك لأنها تنمو من حقائق حسية معينة". (1)

والأخلاق عند ديوي هي: "تفاعل فرد مع بيئته الاجتماعية، فإذا كان مستوى الأخلاق منخفضاً فمرجع هذا إلى أن التربية الناجمة عن تفاعل بين الأفراد وبيئته الاجتماعية تربية ناقصة". (2)

حيث يشكل الوعي بطبيعة الطفولة وخصائصها المميزة، واحداً من أكبر التحديات التي يواجهها الطفل العربي في وقتنا الحالي؛ وذلك تحت تأثير عوامل داخلية وأخرى خارجية، من خلال أبعاد نموه المختلفة سيكولوجياً وأخلاقياً وروحياً وثقافياً، فهو إما يعاني من أنماط تربوية تقليدية تحاصره وتستلبه في آن واحد، أو يتعرض لموجة من التغيرات والإغراءات التي تفرضها طبيعة الحياة الاجتماعية المعاصرة، ممثلة بظاهرة بارزة شكلت ملامح هذه الحياة وهي "العولمة"، التي أدت إلى نوع من تسطيح وعي الطفل العربي

وتشكيل طفولته على مقياس الجشع الليبرالي الامبريالي، حيث اختزلت المسألة التربوية في بعدها الاقتصادي المحض، وأهملت الجوانب الأخلاقية والإنسانية في وظيفتها ودورها، كما أهملت الجوانب الثقافية في عملية التنمية ذاتها، بحيث أصبحت المنظومة التربوية وخاصة الأخلاقية منها تحت التأثير المتواتر لهذه الظاهرة، والنظرية الأخلاقية عند جون ديوي تعتبر طريقة أو اتجاه لمعالجة المشكلات الأخلاقية، تمكن الفرد من أن يختبر الأحكام الخلقية.(3)

وبناء على ذلك سنحاول التطرق في هذا المقال إلى مجموعة من النقاط أبرزها: ماهية التربية الأخلاقية والأخلاق في الثقافة العربية، كما سنتطرق إلى دور التربية الحديثة في بناء المنظومة الأخلاقية، ثم نحاول أن نبرز الواقع الثقافي للطفل العربي، وأهم التحديات التي تواجهه، وفي الأخير محاولة متواضعة لإبراز رؤية إستراتيجية تربوية، لبناء ثقافة الطفل ثقافة سليمة وبناءة.

1- في مفهوم التربية الأخلاقية:

لطالما اهتم التربويون قديما وحديثا بسلوك الإنسان وأفعاله القائمة على التربية الأخلاقية وتأثيرها الاجتماعي، ولعل أبرز علماء الاجتماع الذين كان لهم السبق في الإحاطة بالتربية الأخلاقية، نجد عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم من خلال كتابه التربية الأخلاقية، حيث كان باحثا سوسيولوجيا ومدققا ودارسا للأخلاق في نفس الوقت، حيث اعتمد في نظريته حول الأخلاق في تحديد أسس التربية الأخلاقية، وأكد على أنها يجب أن تعتمد على عنصرين اثنين: فيجب أن يكون هناك من ناحية نظام معين لتنظيم السلوك، ومن ناحية أخرى يجب على الإنسان لكي يكون كائنا أخلاقيا لابد أن يتعلق بشيء آخر غير ذاته هو، فيشعر بالتماسك مع مجتمع معين وبالارتباط الوثيق معه(4).

وإجمالاً، يمكن القول أن التربية الأخلاقية معنية بترسيخ نسق من الفضائل والقيم الأخلاقية في وعي الأطفال والطلاب ووجدانهم، وتتمثل هذه القيم في فضائل: الأدب، والكرم، والتسامح، والإخلاص والرحمة، والنزاهة والعفة، والصبر والتأني، والشفقة والرفقة، واللطف والاعتدال، والشكر والعرفان، والصدق والشجاعة، والتواضع والدعابة، و اللطافة والعدالة، والبساطة والحب، والحق والخير(5).

فهي تهدف إلى بناء الإنسان في المثالي، أي الإنسان الذي يعبر عن ذاته بأفعال أخلاقية نابعة من أعماقه الإنسانية، وهذا يتطلب مرجعية أخلاقية توجه سلوكه وأفعاله بصورة معيارية ومثالية، فالمعايير والقيم الأخلاقية والمثل والمرجعيات الأخلاقية، توجد في كل المجتمعات الإنسانية وغاية التربية الأخلاقية

توجيه الحياة الفردية والاجتماعية بموجب القيم الأخلاقية المعلنة، وتجسيد هذه القيم بصورة حية في مجال الحياة اليومية.

والتربية التي تقوم بتأصيل القيم، تستطيع على مدى الأيام توجيه السلوك وفقا لهذه القيم، وتضفي عليها المعنى والدلالة، وهي في عملية التأصيل هذه، تكسب هذه القيم طابعا انفعاليا عفويا، يتأصل في وعي الفرد ووجدانه(6).

كما يؤكد علي أسعد وطفة بضرورة التمييز بين تعليم الأخلاق والتربية على الأخلاق، فتعليم الأخلاق يتمثل في التعريف بها ووضع الفرد بصورة معانها وتجلياته وصيغها، أما التربية فتتمثل في عملية الممارسة التربوية القيمية، والتفاعل التربوي الأخلاقي في الوسط المدرسي، وفقا للقيم والمعايير المطلوبة أي أنه لا بد من ممارسة هذه القيم في الوسط التربوي، وأن تترجم في سلوكياتهم الفردية والاجتماعية لأن الأخلاق عندما تغرس وتؤصل في الفرد، فإن هذه القيم تؤدي دورا في إنتاج وإعادة إنتاج السلوك الأخلاقي، الذي يتصف بالأصالة والطابع الإنساني، وفي مواجهة السلوكيات السلبية المنحرفة غير الأخلاقية.

2- الأخلاق في الثقافة العربية والإسلامية:

حدد محمد عابد الجابري في كتابه العقل الأخلاقي العربي أربعة استعمالات للفظ الخلق في اللغة العربية وهي:

- يستعمل اللفظ في معنى "القوة الغريزة"، أي الهيئة الموجودة في النفس، التي يدر عنها الفعل بلا فكر وهو قريب من معنى السجية والطبع.

- ويستعمل للدلالة على الحالة المكتسبة، التي يصير بها الإنسان خليقا أن يفعل شيء دون شيء، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه، وهذا قريب من معنى المزاج.

- يستعمل اسما للفعل الصادر عن تلك الحالة، وهنا توحيد بين السلوك وبين الخلق، دافعه الغريزي.

- وقد يستعمل اسما للهيئة والفعل معا مثل العدالة والشجاعة(7).

وقد حدد هذه الأفكار بناءا على مجموعة من التعاريف، التي قدمها الفلاسفة والعلماء العرب المسلمين في مراحل تاريخية مختلفة، ولعل ابرز هذه التعاريف نجد:

يعرفها العلامة فخر الدين الرازي بقوله: "الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة" (8).

كما يعرفها ابن مسكويه بأن الأخلاق "حال للنفس داعية لها، إلى أفعالها من غير فكر ولا روي" (9)

وهذا نفسه ما قرره أبو حامد الغزالي حيث يشير بأن "الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، بحيث تدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا. وان كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا" (10).

وبالتالي توصل إلى أن هناك فكرتان يتحدد بهما الخلق ومعه الأخلاق: الأولى الرسوخ بمعنى الثبات والدوام، والثانية التلقائية أي أنها غير متكلفة، والخلق بهذا المعنى غير السلوك، فهو ملكة وهيئة في النفس تدر عنها الأفعال، بحيث تمثل منبع السلوك، وهو شيء نجده في النصوص القديمة، بعكس لغتنا المعاصرة، التي لا تقيم في الغالب هذا التمييز بين الأخلاق والسلوك، بحيث يكون السلوك في الحقل الثقافي العربي القديم، هو ممارسة الفعل وليس الفعل ذاته، فمثلا قد نجد شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمنازع (11).

كما يخلص الجابري إلى أن مضامين الألفاظ، التي يعبر بها عن الأخلاق في هذه الثقافة أو تلك، إنما تتحدد بناء على نظام القيم السائد في الثقافة المعنية، بحيث نجد أن التعدد والاختلاف في معاني الأخلاق، يرجع في الأصل إلى تعدد واختلاف نظم القيم، التي عرفتها الساحة الثقافية العربية، بسبب التداخل تارة، والصراع بين موروثات ثقافية متعددة تواجدت بهذه الصورة أو تلك، على الساحة العربية منذ الفتوحات الإسلامية، وأيضا بسبب الاحتكاك الحضاري بالثقافات الأخرى من جهة ثانية (12).

3- دور التربية الحديثة في بناء المنظومة الأخلاقية للطفل:

لقد أصبح الدور الذي تؤديه التربية في بناء المنظومة الأخلاقية في المجتمع، قضية فكرية تطرح نفسها بقوة في مجال الحياة التربوية، ومع ذلك فإن الدراسات الجارية في ميدان هذه الظاهرة نادرة وقد كان لعالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم، الفضل في هذا الميدان، وبقيت أعماله حول التربية الأخلاقية مرجعا علميا يمكن للباحثين الرجوع إليه، في تناولهم لهذه المسألة الحيوية من حيث طبيعة التربية الأخلاقية ووظيفتها، لقد بات واضحا أن التفكير بالتربية الأخلاقية، يطرح نفسه اليوم في مواجهة تحديات

الأنانية والانعزالية و الإتكالية، والخضوع والعنف والتعصب والعدوانية والفساد والإباحية والغش والطمع والعنصرية، التي تفرض نفسها في الحياة المعاصرة.

فإذا أردنا تحسين أخلاق أطفالنا علينا أولاً بضبط تربيتهم، وهذا ما ذهب إليه جون ديوي حيث يقول: "إذا كانت موازين الأخلاق منحطة ، فذلك ناشئ من نقص التربية التي يتلقاها الفرد في تفاعله مع بيئته الاجتماعية " (13) ، ومهما يكن من الأمر فإن التربية الأخلاقية، في سياق التربية الجديدة يمكنها أن تأخذ صيغاً وأشكالاً مختلفة، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف فإن هذه التربية، تتجلى في هيئة واحدة لكونها تنطلق من مبدأ النمو الحر للطفل، فالفكرة المشتركة بين مختلف المربين تتمثل في الانطلاق من مبدأ الحرية إزاء القهر والتسلط، الذي قد تمارسه الأساليب التربوية التقليدية، وهذا يمكنه أن يبرر المنطلق الأساسي للتربية الأخلاقية، التي لا تنطلق من الخارج، بل تنبع من مصادر داخلية في الطفولة نفسها.

ويؤكد أنصار التربية الجديدة في المجال الأخلاقي، على إيجاد معادلة تربوية بين طبيعة الطفل والتربية الأخلاقية الممكنة، وهم في ذلك يعتقدون أن حرية الطفل يجب أن تشكل وسيلة من وسائل تربيته أخلاقياً، حيث يجب على المربي أن يراعي النمو الطبيعي للطفل، كما يجب عليه أن يراعي عفويته كي يحقق التربية الأخلاقية المنشودة، وينطلق المربون من اعتقاد راسخ مفاده أن التربية وفقاً لطبيعة الطفل وحرية، تمكن الطفل من الأصالة الأخلاقية المفعمة بالمعاني والقيم الأخلاقية المنشودة.

ولكن هذا النمط الأخلاقي، الذي يعتمد على حرية الطفل وعفويته وتكوينه الطبيعي، يجد نوعاً من الاعتراض لدى بعض المفكرين الذين يرون أن التربية الأخلاقية يجب أن تنطلق من الشروط الأخلاقية الموضوعية، التي تحيط بالطفل باعتباره جزءاً من الوسط التربوي الأخلاقي، حيث يجب على الطفل أن يخضع حريته وعفويته إلى متطلبات الوسط الأخلاقي، ووفقاً لهذا المنظور التربوي فإن الطفل ملزم بالتخلي عن جانب من حريته، للتمرس بالعملية الأخلاقية والنمو وفقاً لمتطلباتها..

وهذا نجد أنفسنا إزاء نوعين من التربية الأخلاقية، أحدهما يأخذ طابع التلقين والإكراه، والأخرى حرية ترك للفرد أن يتخذ قراره الأخلاقي بملء حريته وإرادته، وفي كلتا الحالتين قد يواجه الطفل نوعاً من العبثية الأخلاقية.

فالتربية الأخلاقية، قد تفقد جوهرها ما لم تترك للطفل حرية الاختيار، لأن إمكانية الاختيار بين الخير والشر تمثل الحرية الحقيقية للفرد. (14)

4- في مفهوم ثقافة الطفل:

يعد مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تداولاً وشيوعاً ومن أكثرها غموضاً وتعقيداً، ولعل أبرز تعريف قدم للثقافة هو التعريف الأنثروبولوجي الذي قدمه ادوارد تايلور، حيث عرفها بأنها "ذلك الكل المركب من القيم والمعايير والقوانين والأعراف والأخلاق والتصورات والاتجاهات وأنماط السلوك، التي يعتمدها شعب ما في الاستجابة لشروطه.

هذا ويعرفها المفكر الاجتماعي الجزائري مالك بن نبي بأنها "مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد كإرث أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته". (15)

كما يحصر مالك بن نبي برنامجها التربوي في أربعة عناصر يتخذ منها المجتمع دستور لحياته الثقافية وهي:

- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.
- عنصر الجمال لتشكيل الذوق العام.
- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- الفن التطبيقي (العلم) الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون، أي أن الثقافة بمفهومها العام تمثل أسلوب الحياة المميز لجماعة من الجماعة الإنسانية. (16)
- وبناء على ذلك ينظر البعض إلى ثقافة الأطفال باعتبارها إحدى الثقافات الفرعية في المجتمع، في حين يرى البعض أنها الثقافة الأساسية للمجتمع باعتبارها التي تحدد الاتجاه الثقافي للمجتمع كما تمثل الضلع الثالث لمنظومة إعداد الطفل إعداداً جيداً (أدب الطفولة، التربية، الثقافة). (17)

وفي هذا يشير علي أسعد وطفة إلى أن عالم الطفولة، يختلف عن عالم الكبار والراشدين بصورة نوعية، حيث تكمن خصوصية ثقافة الأطفال في تركيزها على الطابع النمائي للطفل، فهي تشكل وتنمية أخلاقياً ونفسياً وجسدياً وعقلياً، وهذا يتضمن إشارة صريحة إلى الدور التربوي البنائي للثقافة في عالم الأطفال، فالثقافة الموجهة للطفل ثقافة إنمائية تساعد على تحقيق الازدهار والتكامل نفسياً وجسدياً ومعرفياً وعقلياً، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن ثقافة الأطفال في أساسها ثقافة بنائية تتجه إلى بناء

الشخصية، وتكوين الطفل إنسانيا، ومن هذا المنطلق الوظيفي فإن ثقافة الطفل تكون وثيقة الصلة بهويته، فهي ليست مجرد منظومة مكتسبات معرفية أو علمية أو قيمية مكدسة في عقله أو ذاكرته، بل هي فعل تكويني يشتمل على مختلف الجوانب الوجودية في حياة الطفل، وبناءا على هذا التصور حدد مستويين من مستويات الفعالية الثقافية: يتمثل الأول في أن الثقافة معطى خارجي تفرضه الثقافة السائدة في المجتمع، ويتمثل في الوسط الثقافي الذي يحيط بالطفل، ويأخذ الثاني صورة الدور الذاتي الذي فني بناء ثقافتهم الخاصة فالطفل في هذا المستوى يبدو منتجا لثقافته مبدعا لها، فيما يخص أنماط السلوك التي يبدئها عبر تفاعله مع البيئة التي يعيش بها والأطفال وفقا لهذه الصورة يتعلمون من الكبار ويتعلمون من بعضهم البعض.

وثقافة الأطفال لا توجد منقطعة عن ثقافة المجتمع بل تحمل السمات والملامح العامة في المجتمع وفي ذات الوقت تعبر عن مختلف الوضعيات السيكولوجية والعقلية والقيمية التي تسم مرحلة الطفولة ومن هذا المنطلق يمكن القول أن هوية الأطفال تشبع ثقافي يتميز بخصوصية نمائهم وتطورهم في مختلف الاتجاهات والجوانب. إذن يمكن أن نقول أن ثقافة الطفل تمثل صيرورة تفاعل بين الطفل والبيئة التي تحيط به، وهي ما تأصل في وعي الطفل من قيم وتصورات وقدرات عقلية واتجاهات نفسية ومفاهيم ومنظومات سلوكية، كما أنها صورة لمختلف الجوانب النمائية والأخلاقية والقدرات العقلية التي يمتلكها الطفل. (18)

5- الواقع الثقافي للطفل العربي:

لا شك انه لو أخذنا الجو العام للمعطيات الثقافية، فإننا نرى أن ما يقدم للطفل العربي من مثيرات ثقافية لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يعبر عن طموح ثقافي حقيقي للنهوض بالطفل العربي ثقافيا وروحيا، فمن جهة نجد أن شكل التنشئة الاجتماعية، يؤثر في بناء الشخصية ويحدد السمات الأساسية للهوية الفردية، باعتبارها العملية التي يتم فيها ومن خلالها دمج الفرد في الثقافة ودمج الثقافة في الفرد، غير أن الطفل العربي يعاني في ذلك من أنماط تربوية تقليدية صماء، تحاصره وتستلبه في آن واحد، فالطفل العربي يخضع لأنماط تربوية تعتمد مبدأ الترويض والإخضاع وقهر العفوية، فالمقررات والمناهج التربوي في الوطن العربي، تقوم على القهر والإكراه والاستبداد ، فتعتقل العقل وتقتل الإبداع " اعتقال العقل المسلم وتجميده واسترخاؤه والحط من شأنه". (19)

ومن هذا المنطلق فإن أسلوب التنشئة الاجتماعية، يكمن واحد من أكبر المخاطر التي تواجه عملية البناء الثقافي للطفل العربي، حيث تؤكد أغلب الدراسات أن أسلوب التنشئة الاجتماعية السائد في الوطن العربي هو أسلوب تسلطي تمييزي، يفرغ هوية الطفل في بناء شخصيته الإنسانية، وذلك على مستوى كل من المدرسة والأسرة، وفيما يلي بعض ملامح هذه التربية:

- أسلوب التنشئة الاجتماعية أسلوب تقليدي يعتمد على التسلط والإكراه، وفي ذلك يعتمد على مجموعة من المبادئ أبرزها:

❖ تقديم التعليم على التربية

❖ الطفل راشد صغير

❖ التربية إعداد للحياة وليست هي الحياة

❖ التربية ترويض وليست تحرير

- تتداخل في أساليب التنشئة العربية أساليب الشدة والتذبذب، والمحابة والترك والحماية الزائدة بنسب مختلفة.

- تعتمد على أسلوب التلقين في تنشئة الأطفال وتربيتهم وتثقيفهم، أي أنها تنطوي على وسائل ترديدية تعتمد أساسا على حشو الرؤوس بمادة كثيفة تزرع زراعا في المخزون الذاكراتي للأطفال، وبالتالي تتعطل الوظيفة التحليلية والنقدية للعقل عند الفرد العربي وتحل محلها وظيفة التذكر والحفظ.

ولعل هذا ما رآه اميل دوركايم في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حيث يقول "إذا اكتفينا بتلقين الأطفال مجموعة من الأفكار الأخلاقية الشائعة - باعتبار الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية حسب تعبير مالك بن نبي- التي تعيش عليها الإنسانية منذ قرون فقد تستطيع إلى حد ما أن تضمن حياة أخلاقية متوسطة للأفراد، ولكن هذا لا يعدو أن يكون الحد الأدنى للحياة الأخلاقية، ولا تستطيع أمة أن تكتفي بذلك لأنه إذا ظلت هذه الأخيرة في مجتمع ما خادمة بدون أن توجه نحو نشاط ما فإنها تنحرف عن اتجاهها الخلقى وتستخدم في صورة منحرفة ضارة.(20)

فالفرد في سياق فعل التلقين يتلقى تركيبات فكرية جاهزة أو خلائط عقائدية مركزة، يؤسس عليها أنماطه السلوكية، دونما قدرة على التأمل النقدي في طبيعة هذه الأنماط السلوكية، وبالتالي يولد نوع من

الاتكالية والسلبية في شخصية الطفل، ويطمس قدراته العقلية النقدية، أي تكوين ثقافة مشتتة مفككة بعيدة عن مقومات الفهم والتحليل، والقبول الصاغر للطفل بكل ما يحيط به من معطيات ثقافية. (21)

وهذا نكون قد بينا أن أساليب التنشئة والتربية التقليدية من بين أبرز التحديات، التي تواجه بناء ثقافة الطفل وهي تحديات داخلية منبثقة من لب الحياة الاجتماعية، التي تم توارثها جيل عن جيل.

غير أنه مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، برزت لنا مجموعة من الاحتمالات والتكهنات في شكل تحديات خارجية، ممثلة بما يعرف بالعولة، هذا المفهوم الذي عرف انتشارا واسعا واستهلاكا كبيرا، يعبر عن أخطر مراحل تطور الإنسانية في مختلف مستويات الوجود والحياة الإنسانية المعاصرة.

لقد حولت العولة الثقافة إلى سلعة يتم تداولها على نطاق واسع، تخضع للإجراءات الاقتصادية وغير خاضعة للحواجز الجمركية، وغدا يسم بتدفق المنتجات الثقافية ولكن السوق محتكرة ولا مجال للمنافسة، حيث أن القوي يسوق بضاعته بل قادر على فرضها من خلال إمكانات القدرة على التبادل الثقافي بين الثقافات، وسعيها في ذلك إلى تشكيل المجتمعات على نحو مختلف، ففيها قلب للمفاهيم والقيم وتطور في الصيغ والأطر والوسائط.

وتقدم لنا العولة إمكانات مادية هائلة، وتفتح آفاق واسعة وفي الوقت نفسه تمثل تحديات على كل الأصعدة، اقتصاد وسياسة وثقافة، ولها أسئلتها الباحثة عن إجابات، بل ولها استحقاقاتها الباحثة عن إجراءات فالأمر يتعلق بالوجود والمصير .

إن العولة طموح بل إرادة لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من العالم، وينظر إلى فكرة الاختراق على أنها آلية من آليات السيطرة الاستعمارية بشكلها الجديد وهي نتيجة للتطور التقني في ميدان الاتصالات والمعلومات.(22)

هذا الفضاء الالكتروني الذي أصبح يكتنف الطفل اليوم كوسيلة هامة وبارزة في تشكيل ثقافته غير أنها تظل مل جدل بين مؤيد ومعارض، إلى الإعلام الذي يشكل رافدا غزيرا لثقافة الطفل أيضا حيث تنوعت وسائطه وتطورت بدخول التكنولوجيا، بحيث تعتمد وسائل تقنية عالية الفعالية أهمها الوسائط الإعلامية المرئية والمسموعة والمكتوبة، وسائط الانترنت والشبكات الإعلامية، الوسائط الالكترونية التي تتمثل في الحاسوب وفي الميديا ذات الصلة بالحاسوب مثل أجهزة الألعاب والتسلية والأفلام المدمجة.

ولا شك أن العولمة في عالم الطفولة، تعتمد على إغراءات لا تقاوم ومثال ذلك إغراءات الحاسوب، التي تتمثل في برامج وألعاب ومعلومات مذهلة للعقل الإنساني، وهناك تأثيرات الصوت والصورة والانترنت والأغاني والأفلام المدمجة، التي تسحر العقل وتستلب لب الطفل بما تمتلكه عليه من قدرة وسحر وإبداع، فالأطفال وكنتيجة لغياب التوجيه ووجود الإغراء التجاري المستمر، يقعون ضحية استهلاك فاضح للجوانب المدمرة في هذه الوسائل، كاللعب والأفلام التي تحتوي الصور الفاضحة.

فالفضاء الالكتروني يشكل اليوم أذواق البشر وقيمهم وعاداتهم واهتماماتهم، وهو يملك القدرة على تشكيل وعي الإنسان ومضمونه الثقافي، ويعتمد هذا الفضاء أكثر النظريات العلمية تطورا في قياس إدراك البشر ووعيهم.

ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نذكر بعض الشبكات التلفزيونية الأجنبية، التي تروج للجنس والفضح والهيمنة وتعمل إلى اختزال الطفل في غرائزه البدائية الأولية، وفي هذا الامتداد الكبير والخير لعالم الصورة في عصر العولمة، تشهد المعرفة العقلية النقدية ضمورا وتراجعا وتصدعا وانحسارا يهدد القيم الأصلية، ويبدد عطاء الثقافة الإنسانية، مقابل نهوض قيم الفردية والأنانية واللذوية والنفعية والغرائزية، على حساب القيم النبيلة الخلاقة، التي تتسم بالعقلانية والغيرية والتسامي والإنسانية.(23)

لا شك من خلال ما سبق ذكره، أن الطفل يتعرض لنوعين من التحديات، واحدة من داخل المجتمع الذي يعيش فيه ممثلة في أساليب التربية والتنشئة التقليدية، التي تم توارثها جيل عن جيل والتي تتميز بعدم الفاعلية والنجاعة، وهي ما يعرفها مالك بن نبي بمجموع الأفكار الميتة، ومن جهة أخرى نجد مجموع التحديات التي يتعرض لها من الخارج، نتيجة الاختراق الثقافي الذي تعاني منه مجتمعاتنا وهو ما يطلق عليه بالأفكار القاتلة.

6- نحو إستراتيجية تربوية أخلاقية لبناء ثقافة الطفل العربي:

في الوقت الذي تبلور فيه المجتمعات المتقدمة شرقا وغربا إستراتيجية متكاملة للعناية بالطفولة، مازلنا في معظم أنحاء الوطن العربي غير مهتمين بذلك إلا في أضيق الحدود، ولذلك فإن مسألة إعداد إستراتيجية تبلور من خلالها مجتمعاتنا أفكارها نحو الطفل، مسألة حيوية وهامة ويجب أن تركز على نظرة شمولية وعميقة.(24)

لاشك أن نقطة الانطلاق، تبدأ من مواجهة التحديات الداخلية للثقافة والتربية على حد سواء، ومن هذا المنطلق يجب على التربية في مجتمعاتنا أن تعمل على تفكيك بنية التخلف السائدة وتحطيمها وتكثيف جهود الأجيال في اتجاه البناء الحضاري لعالم يفيض بقدرات العلم، ويتحرك بطاقات الثورة المعرفية المتجددة، فالتربية التقليدية تقف عائق أمام انطلاق المجتمع وتكبح قدرته على الانطلاق، لذلك يتوجب على المجتمع أولاً أن يعمل على تفكيك بنى وأسس التربية التقليدية السائدة، وإعادة بناء هذه التربية وفقاً لمعطيات العصر ومتطلباته في عصر العولمة وما بعد الحداثة.

فالتربية التي ينشدها المجتمع، هي التربية الأخلاقية النقدية، التي تفعل كل الطاقات والإمكانات المتاحة في اتجاه بناء إنسان بمواصفات حديثة متقدمة، تتجلى في تكريس التفكير النقدي المنطلق والعقل الإبداعي المجدد، الذي يتف بدرجة عالية من القدرة على تفكيك الظاهرة وتحليلها، وهو العقل الذي يرفض المعاني الوحيدة للظواهر، ويبحث عن بدائل متعددة في كل موقف، إنها التربية التي تسعى إلى تكريس قيم التسامح والعطاء وقبول الآخر وتحقيق الذات.

فالعامل الجاد لا بد أن ينطلق من فهم علمي عميق وشامل لعوامل التخلف الثقافي والتربوي في مختلف اتجاهات الحياة التربوية والثقافية. (25)

وضمن هذا الإستراتيجية الثقافية يطرح علي أسعد وطفة مجموعة من النقاط من أجل تنمية وتعزيز القيم الثقافية عند الطفل أهمها:

- تعظيم قيم العلم والمعرفة والعقلانية، في مختلف انساق التربية والتعليم عند الطفل.
- تعظيم قيم العمل والإنتاج على نحو إبداعي والتحرر من مفهوم العمل بوصفه روتيناً يومياً يؤديه لضمان كسب الحياة.
- التخلص من الرواسب والقيم الثقافية المعيقة للتنمية، مثل التواكل والهدر والعبثية وتأكيد روح المسؤولية والموضوعية والتفاني في خدمة العمل بوصفه جوهر الإنسان وغايته.
- إعطاء الأولوية للتنمية البشرية وغاياتها في الآن الواحد، وإن التغيرات تكون في وعي الناس وقيمتهم ونوازعهم قبل أي شيء آخر.
- التأكيد على قيم الديمقراطية والمساواة وتأكيد أهمية المشاركة و الحوار والانفتاح. (26)

❖ الخاتمة:

إن خلاصة قولنا، أن أي خطة تنموية تستهدف النهوض بالمجتمع، لا يكون الطفل موجب بها وهدف لها وغاية منها، لن يكتب لها النجاح مهما توفرت الإمكانيات المادية والمعنوية، والمحافظة على الذات الثقافية للطفل، تتطلب الموازنة بين حتمية الانفتاح على المتغيرات العالمية والمستجدات من جهة، والمحافظة على المقومات الأساسية للفرد والمجتمع من جهة أخرى، مع انتقاء القيم الحقيقية المتأصلة في ثقافتنا، كما أن وعي الأفراد بطبيعة الاختلاف والرؤى في مجال القيم والحياة الأخلاقية، يساعده على تحقيق التوازن بين القيم الحديثة والقيم التقليدية المؤصلة في عمق الثقافة التي ينتمي إليها، ولذلك كانت التربية الأخلاقية في مستوى الطفولة، تشكل حجر الزاوية في كل إصلاح تربوي ممكن ومحتمل، وإن الإصلاح التربوي يشكل العمق الاستراتيجي للإصلاح الاجتماعي برمته، لذلك كان لابد من إيجاد معطيات عميقة وبنوية في أساليب تربية الأطفال، وفقا لأحدث المعارف العلمية والنفسية والاجتماعية.

وعلى التربية العربية بمؤسساتها المختلفة، أن تساعد الطفل على تجاوز النظرة التي يحكمها الوعي اليومي، وأن تطور لديهم وعيا علميا يساعدهم في تلقف الحقيقة بأسلوب علمي يتميز بطابع الأصالة والعمق، خاصة وأن الآثار التي خلفها العولمة على التربية الأخلاقية للطفل، تكمن في تناميها كتوجه سوسيواقتصادي (تجاري وخدمي) أقحمت فيه الفضاءات الاجتماعية ومؤسسات تنشئته، مما أدى إلى حدوث فجوة وخلل بين الأجيال والسياقات الحضارية، ومكونات المجتمع الواحد، واختلال في المفاهيم وتغيرها.

❖ قائمة الهوامش:

- 1- العسكري كفاح يحي صالح، الغزالي وجون ديوي (نظرتهم للطبيعة الإنسانية)، إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية، العدد 2، جوان 2013، ص 139.
- 2- ناصر إبراهيم، التربية الأخلاقية، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2006، ص 351
- 3- جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانية، ترجمة: لبيب النجيحي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، 1963، ص 91.
- 4- أميل دوركايم، التربية الأخلاقية، ترجمة: السيد محمد بدوي، المركز القومي للترجمة، ط 1، مصر، 2015، ص 16.

- 5- علي أسعد وطفة، أصول التربية "إضاءات نقدية معاصرة"، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2011، ص 409.
- 6- علي أسعد وطفة، المرجع السابق، ص 400.
- 7- محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2001، ص 36.
- 08- محمد فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بدون بلد، 1981، الجزء 30، ص 601.
- 9- أحمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981، ص 19.
- 10- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص 90.
- 11- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 33.
- 12- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 56.
- 13- أحمد فؤاد الأهواني، جون ديوي (نوابغ الفكر الغربي)، دار المعارف، القاهرة، ط 1999، ص 3، ص 136.
- 14- علي أسعد وطفة، المرجع السابق، ص 402-403.
- 15- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 1985، ص 83-87 بتصرف.
- 16- محمد عبد الرزاق إبراهيم وآخرون، ثقافة الطفل، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط 3، الأردن، 2009، ص 79.
- 17- سعاد البسيوني، المجالات الثقافية لطفل الروضة، دار الجامعة الجديدة، مصر، 2010، ص 31.
- 18- علي أسعد وطفة، الطفولة العربية والصراع على المصير، مجلة نقد وتنوير، إصدار خاص، الكويت، 2015، ص 09.
- 19- نبيل هلال هلال، اعتقال العقل، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1998، ص 12.
- 20- اميل دوركايم، المرجع السابق، ص 32.
- 21- علي أسعد وطفة، الطفولة العربية والصراع على المصير، المرجع السابق، ص 14.
- 22- محمد حسن البرغثي، الثقافة العربية والعولمة "دراسة سوسيولوجية لأراء المثقفين العرب"، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط 2، الأردن، 2014، ص 114-115.
- 23- علي أسعد وطفة، الطفولة العربية والصراع على المصير، المرجع السابق، ص 22.
- 24- احمد عبد الله العلي، الطفل والتربية الثقافية، دار الكتاب الحديث، مصر، 2002، ص 37.

- 25- علي اسعد وطفة، الطفولة العربية والصراع على المصير، المرجع السابق ، ص 27.
26- علي اسعد وطفة، الطفولة العربية والصراع على المصير، المرجع السابق ، ص 30.